

## فتغنشتاين وفرويد وعلاجية اللغة: إدراك الواضح أم تأسيس الأساطير؟

ماري غيوت

**Wittgenstein, Freud and the Therapy of Language: Recognizing the Perspicuous or Constructing Mythologies?**

Marie Guillot

ترجمة: مروان محمود

مراجعة: أروى الفهد - إبراهيم الكلثم

### ملخص الورقة

إن الرابطَ الأجلَى الذي يُمكن من خلاله مقارنة الفيلسوف «فتغنشتاين» بمؤسس مدرسة التحليل النفسي «فرويد» هو أنهما معالجان لِلُّغة. واستنادًا على التأكيد المفاهيمي بأن «معالجة الفلاسفة للأسئلة هي بمثابة معالجة الأمراض». (تحقيقات فلسفية، فقرة ٢٥٥)، فإن فتغنشتاين يؤسس فكره لمعالجة الأمراض النحوية والدلالية والالتباسات المفاهيمية الناتجة عنها. على ذات النَّسق، يتجه نظر فرويد إلى جميع الاختلالات التي تنكشف في سيرورة الكلام؛ كالتورية، وزلات اللسان، والأحلام كذلك، وهذه الأخيرة -وهي أهمها- ترتبط بالباراداييم اللُّغوي؛ إذ تُعدُّ أُحجِيَّات أو نصوصًا مشفرة تدفع إلى حَلِّها وفكِّ تشفيرها. وقد تبدو هذه المقارنة قابلة للدحض من أصلها وفق التعارض التالي: حيث تُعدُّ «تشوّهات اللغة» بالنسبة لفتغنشتاين مسببات الأمراض، ويُسمّونها: «تشنجات ذهنية» (الكتاب الأزرق والبنّي، صفحة ٥٩)، و«أمراض الفهم» (ملاحظات على أسس الرياضيات، صفحة ١٥٧)، بينما بالنسبة لفرويد، فتشوّهات اللغة إنما هي أعراض تحجب مشكلات أعمق ذات طبيعة أخرى. أي أنّ اضطرابات الكلام بالنسبة لفتغنشتاين تأتي في المرتبة الأولى في سلسلة مسببات

الأمراض، بينما عند فرويد تأتي أخيرًا. ومع ذلك فهذا التعارض قد يكون سطحيًا؛ فبحسب فتغنشتاين، وبدقيق العبارة، لا يمكن للغة على هذا النحو أن تكون مسؤولة عن الأمراض الفلسفية؛ لأنَّ هذا لا يتسق مع ادِّعاء: «أنَّ كل جملةٍ من لغتنا «مرتبة كما هي» [...] فحيث يوجد مَعْنَى ينبغي أن يوجد نظامٌ ترتيبٍ مثالي [يُطابقه].» (تحقيقات فلسفية، فقرة ٩٨)، إذ إنَّ اللغة في جوهرها ليست مضللةً أو منحرفة، فلا يمكن أن تلغي تنظيم نفسها تلقائيًا. وعليه، فلا بد أنه يوجد سببٌ مسبقٌ للأمراض اللغوية، والذي يتعين البحث عنه وراء محايثة القواعد النحوية. كما يبدو أنَّ فتغنشتاين وجد هذا السبب في اللاوعي، وذلك في رغبة الفهم الميتافيزيقية لكسر القواعد، «جزء اصطدام رأسه بحدود اللغة» (تحقيقات فلسفية، فقرة ١١٩).<sup>١</sup> إذن، فبالنسبة لفتغنشتاين وكذلك فرويد، فإن الاختلالات اللغوية عبارة عن تمظهرات، وليست الأسباب النهائية للأمراض التي يمكن العثور على مصدرها في رغبات العقل البشري المكبوتة<sup>(١)</sup>.

<sup>١</sup> يقصد فتغنشتاين أن هدف الفلسفة ليس التدخل في لغتنا وقواعدها واستخدامها، بل أقصى ما تصل إليه الفلسفة هو وصف هذا الاستخدام، هذه هي مهمة الفيلسوف، إذا تعادها سينتج عن ذلك الأمراض والالتباسات بالمعنى الذي يقصده فتغنشتاين، لذلك تجده في أكثر من موضع ما يصف الفلاسفة بالمرضى، وهو بمثابة الطبيب الذي سيستأصل هذه الأمراض والتورمات الناتجة عن اصطدام الرأس بحدود اللغة كما يكتب في الفقرة، وهذا يرتبط بسياق مقارنته مع فرويد. انظر للترجمة الكاملة لهذه الفقرة للدكتور عبد الرزاق بنور في كتاب تحقيقات فلسفية، وشرحه لها. (المترجم)

## محتويات الورقة:

- ١- إدراك ما هو واضح
- ٢- هل الكلام العلاجي هو استعمال إنجازي للغة؟
- ٣- المراجع

بعد مناقشة العلاقة بين أهداف التحقيقات العلاجية لكلٍ من فرويد وفتغنشتاين يظل السؤال قائماً حول ما إذا كان يمكن مقارنة منهجيهما العلاجيّ كذلك. إنّ هدف هذه الورقة محاولة حلّ هذه الإشكالية، وبدائيةً، فسيُقابلنا تناقضٌ ما في فكر فرويد وفتغنشتاين: هل يتمثل العلاج في إدراك المعنى الذي كان دائماً واضحاً، أم في تأسيس معنى ما؟ هل ينطوي العلاج على محض رؤية أم عمل؟

### ١. إدراك ما هو واضح

إذا كنا سنُقارن بين منهجيّ العلاج عند فرويد وفتغنشتاين فمن الضروري إبداء ملاحظة أولية حول تشابه البنية بين تصوراتهما المفاهيمية المختلفة عن اللغة. فبالنسبة لكلا المفكرين، ينبني الكلام على نمطٍ مزدوج، أي على زوج تكميلي للمبادئ المتناقضة. وعملياً، يمكن إقامة توازٍ بين التمييز «الفتغنشتايني» بين القول والإظهار، والتمييز «الفرويدي» بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن (أو الكلام والأعراض). إذ يعي المفكران أنّه ليس كل ما يُعبّر عنه في اللغة فهو يُقال بالضرورة، ولكنه مع ذلك يمكن أن يُظهر نفسه، ولهذا السبب، فإنّ فهم مضمون الكلام المنطوق لا يلزم استيعاب كافة الأبعاد الدلالية. أيضاً، يهتم كلا المفكرين بما يحدث داخل اللغة، ولكن يتجاوز نطاق اللغة نفسها، أو بعبارة أخرى، فيما تكشفه اللغة أو تخونه دون أن تفصح عنه. يتزامن هذا العامل صعب المنال في حالة فرويد مع وجود معانٍ غير واعية ضمن جمل واعية تتجلى -أو تظهر- عن غير قصد المتكلم. أما في أعمال فتغنشتاين فيُحدّد البُعد «غير المُقول» أولاً بشكله المنطقي (كما في كتابه رسالة منطقية-فلسفية)، ومن ثم -بشكل

أعم- بالقواعد اللغوية (كما في كتابه *تحقيقات فلسفية*). إذ إننا نفهم المعنى المُعَرَّب عنه فهمًا تلقائيًا عبْرَ جمل اللُّغة العادية، ولكننا لا نعي بالضرورة *القواعد* الناظمة لتركيبها، مهما بدت تلك القواعد واضحة.

وهذا هو -بالتحديد- المجال الذي تنشأ فيه المشاكل اللغوية، إذ يعتقد المفكر أن اللغة تصبح فريسةً للأمراض عندما يمرُّ بعدها الثاني (ما لا يُقال بل يظهر) دون ملاحظة أحد له، فالالتباسات الفلسفية تنشأ حين تُتجاهل القواعد اللغوية، على الرغم من وضوحها. وبالمثل، تنشأ الاضطرابات النفسية من التغاضي عن الرغبات اللاواعية التي تظهر على سطح الكلمات الواعية. يستكشف فرويد وفتغنشتاين هذه المفارقة المحيرة: إنَّ البعد الثاني للغة مثله مثل مبتغى شخصية المحقق «دوبين» في كتاب الرسالة المسروقة *The purloined letter* لأدغار الآن بو: تزداد سهولة تفويته كلما ازداد وضوحًا للنظر؛ فالأوضح هو الأصعب فهمًا، أو بعبارة فتغنشتاين: «إنَّ أكثر مظاهر الأشياء أهميةً بالنسبة إلينا محجوبة بسبب بساطتها وألفتها. (لا يمكن للمرء أن يلاحظ شيئًا ما لأنه واقعٌ دائمًا أمام ناظره)». (*تحقيقات فلسفية*، فقرة ١٢٩)<sup>(٢)</sup>، ووفقًا لذلك، وبقدر ما يبدو الأمر مخالفًا للبداهة، فإن علاج الكلام ينبغي أن يتألف من تعلّم رؤية ما هو واضح<sup>(٣)</sup>. وينطوي ذلك على تبني نظرة مختلفة عن اللغة -أو ما يدعوه فتغنشتاين «نظرة شمولية» (Übersicht) (*تحقيقات فلسفية*، فقرة ١٢٢)- بحيث إنَّ كل ما قد تعرّض للكبت، أصبح يمكن الإفصاح عنه (بالنسبة لفرويد)، وحتى يتسنى لنا «الانتقال من لامعني خافٍ إلى لامعني جلي ظاهر» (*تحقيقات فلسفية*، فقرة ٤٦٤). إذن، فكل ما يتطلبه لإزالة الأعراض العصبية أو لحل مشكلة فلسفية هو إيلاء اهتمام صادق لما نقوله، من أجل رؤية ما كان دائمًا واضحًا ولكنه غير مرئي. في الفلسفة، على سبيل المثال، بمجرد ما يُكشف عن القواعد اللغوية العادية والواضحة التي أثار إهمالها لبسٌ مفاهيمي، فإن هذه الالتباسات ستختفي في لحظة استنارة تشبه للغاية ذلك الإحساس المذهل للشاهد (evidence) في الفكِّ الفرويدي للكبت. إن إدراك ما هو واضح كافٍ لـ«أن

ترشد الذبابة كيف تخرج من فخ الذباب». (تحقيقات فلسفية، الفقرة ٣٠٩). وهكذا، فكما تقتصر مهمة المحلل النفسي على الإنصات بتمعن، فإن فلسفة فتغنشتاين اللاحقة تركز على إجراء دراسة فاحصة «لألعابنا اللغوية» ووصفها، وكما يقول: «تكتفي الفلسفة بوضع كل شيء نصب أعيننا ولكنها لا تفسر ولا تستنتج شيئاً. وبما أن كل شيء واضح نصب أعيننا فلا وجود لأي شيء يستوجب التفسير؛ لأن ما هو مخفي، مثلاً، لا يهمنا.» (تحقيقات فلسفية، الفقرة ١٢٦).

إنّ منهجيّ فرويد وفتغنشتاين العلاجيين متماثلان إلى حدٍ بعيد من حيث إنّهما يَنزَعان إلى رؤية ما هو واضح، وعليه، يمكن أن نعدّهما مفكرين بارعين في «فينومينولوجيا الكلام»: فإنهما يوليان اهتماماً كبيراً لما نقوله بالفعل، بحرفيته. كما تتضمن طريقتهما في علاج الأمراض اللغوية موقفاً سلبياً من الاستجابة لما هو موجود بالفعل، بدلاً من التصرفات الإيجابية. هذا قد يساعد على فهم ادّعاء فتغنشتاين الاستفزازي بأن الفلسفة «لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تتدخل في الاستعمال الحقيقي للغة» و«إنها تترك كل شيء على حاله» (تحقيقات فلسفية، فقرة ١٢٤). إذن، من أجل معالجة أمراض الكلام فيبدو بأنه لا يوجد ما يُمكن عمله، ولكن هناك ما يجب رؤيته.

## ٢- هل الكلام العلاجي هو استعمال إنجازي للغة؟

إنّ المقاربة الأولى لمنهجيّ فرويد وفتغنشتاين العلاجية تثير المشكلات أكثر مما تحلها. في الواقع، إنها تتعارض جذرياً مع وجهة نظر أخرى يمكن تصورها، والتي تفيد بأن استعمالهما العلاجي للغة هو استعمال إنجازي.

إنّ كلام المعالج -سواء كان فيلسوفاً أو محللاً نفسياً- لا يمكن وصفه فقط من زاوية السلبية أو التقبّل، فيجب -أيضاً- اعتباره على أنه فعلٌ حقيقي؛ لأنه مثالٌ ذو صلة على نحو خاص بالمنطوقات الإنجازية لدى جون أوستن (كيف ننجز الأشياء بالكلام، ١٩٦٢). إذ يقوم كل من فرويد وفتغنشتاين «بإنجاز أشياء بالكلمات»: فكلامهما لا يُبلور

نظريّةً للوسائل العلاجية فحسب، بل يمثّل التدخل العلاجي نفسه. بالنسبة لفتغنشتاين، تتمثل المهمة الرئيسية للفيلسوف في إعطاء تعبيرٍ لفظيٍّ صريحٍ للبُنى المفاهيمي؛ وعلى ذات المنوال، فإن غاية المحلل النفسي هي الحصول على إفادة كاملة من المريض حول أعراضه. لكن لا يُعد وضع الأمراض في كلمات، في كلتا الحالتين، تمهيداً لعلاجها، إنما هي في حد ذاتها منهجُ العلاج. في حين أن الوصف الدقيق لمظاهر المرض في العلوم الطبية ضروري قبل محاولة القيام بأي فعلٍ علاجي، كمتطلبٍ أساسيٍّ ومحايدٍ وتأسيسيٍّ للفعل، بينما بالنسبة لفرويد وفتغنشتاين، فإنّ الوصفَ هو الفعلُ. وعليه، ولصيغة ذلك بكلمات أوستن «إن نطق [إفادة المرض] هي إنجاز للفعل أو إنشاء لجزء منه، والذي [...] لن يوصف عادةً بأنه "مُجرد" قول شيء ما.» (كيف ننجز الأشياء بالكلام، صفحة ٥)، أي، فعل تخفيف حدة المرض المعنيّ.

كان فرويد مدرّجاً لذلك منذ مرحلة مبكرة من حياته الفكرية كما نرى في كتابه *دراسات في الهستيريا*، إذ إن منهجه يستند إلى القوة الإنجازية للغة. وأفاد أنه قد «وجد [...] أن كل عرض هستيري منفرد قد اختفى فوراً وبشكل دائم عندما نجحنا في تسليط الضوء بوضوح على ذاكرة الحدث الذي أثار هذا العَرَض، وعندما وصف المريض الحدث بأكبر قدر ممكن من التفصيل، وصاغ المعاناة في كلمات.» (*دراسات في الهستيريا*، صفحة ٦) دُشّن إجراء «العلاج بالكلام» من خلال أول مريضة لدى فرويد وبروير، وتُدعى آنا أو. (Anna O): لقد قصّدت بهذا الاسم أنّ صياغة العرض ونشأته في كلمات كانت تزيله، بحيث كان العلاج يكمن في الكلام؛ فالكلام فعل.

والبعد الإنجازي للغة في التحليل الفتغنشتايني للاضطرابات المفاهيمية ليس أقل وضوحاً. فالمشكلات الفلسفية تُحل ببساطة من خلال «النظر في اشتغال لغتنا.» (*تحقيقات فلسفية*، فقرة ١٠٩). إذ من خلال وصفنا للتشابكات في قواعدنا اللغوية بعنايةٍ فائقة، وعبر تذكّر هذه القواعد فيما بعد، فإننا نفك هذه الاشتباكات. وهكذا فإن فيتغنشتاين، مثل أوستن، يقوض «افتراضاً قديماً في الفلسفة، الافتراض الذي

مفاده أن قول شيء [...] هو دائماً وببساطة إثبات ذلك الشيء وتقديره.» (كيف ننجز الأشياء بالكلام، صفحة ١٢). في (أو من خلال) قول ما يقول، فإن الفيلسوف-المعالج يفعل شيئاً ما؛ فتحقيقاته المفاهيمية كافية لإنتاج أثر تحريري مفاجئ، لدرجة أن «المشكلات الفلسفية يجب أن تزول تماماً.» (تحقيقات فلسفية، فقرة ١٣٣). إن فاعلية الكلمات المجردة في علاج الأمراض الفلسفية تؤكد ادعاء فتغنشتاين اللوح بأن «الفلسفة ليست لفيقاً من النظريات وإنما هي نشاط.» (رسالة منطقية فلسفية، ١١٢، ٤). كما يقول: «ما أريد أن أعلمك إياه ليس آراءً ولكن منهجاً. [...] كما لا أحاول أن أجعلك تعتقد بشيءٍ لا تعتقده، ولكن أجعلك تفعل شيئاً لن تفعله.» (مقتبسة من R. Rhee). إن كلام الفيلسوف، إذا كان علاجياً بحق، فهو دائماً إنجاز. يبدو أن هذه الخاصية تتعارض مع الحياد والسلبية التي ينطوي عليها وصف فتغنشتاين للفلسفة بأنها «تترك كل شيء على ما هو عليه.» هل يتمثل منهج علاجه على رؤية شيء ما، أم فعل شيء ما؟ في حالة فتغنشتاين، فإن هذه ازدواجية ليست إلا ازدواجية سطحية، وذلك لأن فعل شيء ما لا يتطلب تقديم شيء جديد داخل اللغة، وإنما تغيير نظرتنا إليها وحسب. وعليه، فإن ذلك لا يتعارض مع نتيجة أن الشفاء من الأمراض اللغوية يتلخّص في رؤية ما هو واضح.

بينما في حالة فرويد، فإن التوتر بين الفعل ومجرد رؤية ما هو موجود أصلاً هو إشكالية فعلاً: إن كلام التحليل النفسي إنجازي بمعنى أكثر جذرية من فلسفة فتغنشتاين. فقد عبّر فرويد في مؤلفاته الأخيرة (كما في كتابه *Constructions in Analysis* مثلاً) عن فكرة أن البحث عن أفكار المريض المُعبّر عنها والذكريات لا تتمثل في استدعائها بقدر ما تتمثل في إعادة بنائها. فعوضاً عن وصف ما هو موجود بالفعل (أي الإقرار *avowal*)، فإن التعبير عن اللاوعي هو فعل *إبداع*. وعليه، فإن هناك غموضاً حقيقياً في فكر فرويد حول ما إذا كان العلاج يتمثل في الكشف عن معنى كان متاحاً دائماً للرؤية، أو في بناء معنى جديد بناءً جذرياً. هذا هو المجال الذي يفترق فيه فتغنشتاين عن فرويد؛ لأن

الفعاليّة الإنجازية لملاحظات فتغنشتاين ليست بأي حال من الأحوال عمليةً بناءً. بل هي على النقيض من ذلك، إذ إن المنهج العلاجي لفتغنشتاين يتمثل بالأحرى في تحطيم «منازل الورق» اللغوية (تحقيقات فلسفية، فقرة ١١٨). ووفقاً لذلك، فإن رؤيته لمنهج فرويد العلاجي باستخدام عمليات البناء بدلاً من الوصف الدقيق ستكون رؤيةً نقدية نقدًا صارمًا، إلى حد أنه يضع التوضيحات المبتكرة للتحليل النفسي في إطار الأمراض اللغوية بوصفها أساطيرًا (*mythologies*). يبرهن استعمال فرويد وفتغنشتاين الإنجازي للغة أنه يوجد نمطان مختلفان للغاية: إن الأول يتحدث من أجل فعل شيء ما، والأخير من أجل إبطال شيء ما. هل يعني هذا أن فتغنشتاين متقدم بخطوة عن فرويد من ناحية ما يجعل حدائهما وفائدتهما بالنسبة للفلسفة المستقبلية، أي أنه متقدم عليه من ناحية نضالهما المشترك ضد الخيال والوهم؟

## هوامش:

(١) تُعزى الأفكار المكبوتة دورًا صريحًا في المسببات المرضية لل صعوبات المفاهيمية في مقطع من القواعد الفلسفية Philosophical Grammar حيث يتحدث فيتغنشتاين علنًا باسم «تلميذ فرويد»: «لا بد أن يكون عالم الرياضيات مرعوبًا من خلال تعليقاتي الرياضية، نظرًا لأنه قد تم تدريسه دائمًا لتجنب الانغماس في الأفكار والشكوك من النوع الذي أطوره. لقد تعلم أن ينظر إليها كشيء مزيف، ولاستعمال تشبيهه من التحليل النفسي (هذه الفقرة تذكرنا بفرويد)، لقد اكتسب النفور منها على نحو طفولي. وقصدي من كل ما ذكرت هو أن أوضح أن كل المشاكل في تعلم طفل الحساب وما شابهها من الصعوبات والمشاكل التي يكتبها التعليم دون حل. أقول لتلك الشكوك المكبوتة: أنت محق تمامًا، استمر في السؤال، واطلب توضيحًا!» (صفحة ٣٨١-٣٨٢).

(٢) إن موقفنا الغامض تجاه شيء بسيط، كوظيفة جملة، هو مثال على مفارقة فتغنشتاين بأن الأكثر ألفة هو الأصعب إدراكًا. يميل المرء إلى الاعتقاد بأن «القضية (proposition) هي شيء غريب!» (تحقيقات فلسفية، فقرة ٩٤)، مع معرفة «عدم وجود أي شيء خارق» (نفس الفقرة). يمكن تحليل هذه الازدواجية على نحو مثمر في ضوء المفهوم الفرويدي للغريب (the uncanny): الوطن "Heimat" يصبح غريبًا "unheimlich" لأنه يقابل المقاومة. (Cavell, S.) ((1989), *This New Yet Unapproachable America*,

(٣) يتزامن إدراك ما هو واضح بالنسبة لفتغنشتاين وفرويد بالعودة إلى الأصل. إن التحليل النفسي هو نوع من البحث الأركيولوجي في أعماق تاريخ المريض، حيث استمدت الرغبات اللاواعية مصدرها. ويتمثل تحليل فتغنشتاين النحوي في إعادة كل كلمة إلى سياقها الأصلي، «في لعبة اللغة التي هي موطنها الأصلي (Heimat)» (تحقيقات فلسفية، فقرة ١١٦). (*This New Yet Unapproachable America*، صفحة ٣٢-٤٠).

### ٣- المراجع

- Austin, J.L. (1962), How To Do Things With Words, Oxford, Oxford University Press.
- Cavell, S. (1989), This New Yet Unapproachable America, Albuquerque, New Mexico.
- Freud, S. and Breuer, J. (1893-1895), Studies on Hysteria, London, Hogarth Press Standard Edition v. 2.
- Freud, S. (1937), Constructions in Analysis, London, Hogarth Press Standard Edition v. 23
- Wittgenstein, L. (1922), Tractatus Logico-Philosophicus, London, Routledge and Kegan Paul.
- Wittgenstein, L. (1953), Philosophical Investigations, Oxford, Blackwell.
- Wittgenstein, L. (1956), Remarks on the Foundations of Mathematics, Oxford, Blackwell.
- Wittgenstein, L. (1958), The Blue and Brown Books, Oxford, Blackwell.
- Wittgenstein, L. (1974), Philosophical Grammar, Oxford, Blackwell